واقع الطفل التوحّدي في المجتمع الجزائري

-قراءة سوسيولوجية في الرابط الاجتماعي-

REALITY OF THE AUTISTIC CHILD IN THE ALGERIAN SOCIETY

-Sociological reading in the social link-

بوعناني براهيم[1]*، صدّيقي عبد النور[2]

[1] جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس، الجزائر، brahim_socio@yahoo.fr

[2] جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس، الجزائر، seddikinour@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/12/29 تاريخ القبول: 2022/02/05 تاريخ النشر: 2020/3/04

ملخص:

تأتي هذه الورقة كحوصلة بحثية توصلنا إليها انطلاقا من نتائج بحث ميداني أجري على عينة قصدية لبعض العائلات الجزائرية ضمن أفرادها طفل توحّدي. اعتمدنا في الدراسة على مقاربة كيفية من خلال أداة المقابلة كإجراء تقني لجمع المعطيات الميدانية. وقد تناولنا بشكل رئيس خصائص هذا الواقع الأسري والذي انطلاقا من استنطاقه يمكننا تحديدا الوقوف على أي نمط من الرابط الاجتماعي يتشكل داخل الأسرة الجزائرية في علاقتها بالطفل التوحّدي. نتائج هذا البحث أمكنتنا من الكشف عن الصورة النمطية في بعدها الثقافي، الرمزي التي يشكلها أفراد الأسرة عن الطفل التوحّدي ومن ثم تحديد نمط الرابط الاجتماعي الذي يتشكل داخل هذه الأسرة.

كلمات مفتاحية: الرابط الاجتماعي، التكامل الاجتماعي، التماسك الأسري، الوصم، إعادة التأهيل.

Abstract:

This research paper is the outcome of our research based on the results of a field research conducted on a purposive sample of some Algerian families who have an autistic child within their members. In this study I have relied upon a qualitative autistic child within their members. In this study I have relied upon a qualitative.

In this study, I have mainly tackled the characteristics of this family reality, and in the light of its investigation we can find out the type of the social link which is formed within the Algerian family in its relation with the autistic child.

The outcomes of this research allowed me finding out the typical image in its symbolic and cultural dimension formed by the members of the family about the autistic child, and hence determining the type of the social link formed within this family.

Keywords: social link; social integration; family cohesion; stigma; rehabilitation.

✵ المؤلف المرسل

1 مقدمة:

قد يتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى على أن موضوع الطفل التوحّدي في علاقته بالأعراض المرضية أو مظاهر الإعاقة وفي ارتباطه بالتدابير العلاجية والاستشفائية يضلّ محدّد ومحصور من حيث تناوله بالبحث والدراسة ضمن دائرة ما هو تعبير بالدرجة الأولى عن ظاهرة طبية ونفسية. إلا أنّ وضع ظاهرة المرض بشكل عام في علاقة مع المجتمع كفضاء لوحدة بشرية وكنظام من العلاقات التفاعلية من حيث تواجدها وانتشارها أو بخصوص انعكاساتها وتأثيراتها وفي مستوى ردود أفعال المتأثرين بها يجعلها تصبح من منظور الواقع واشتغاله ومن مستوى المجتمع وشروطه مسألة مبنية اجتماعياً، وهذا يعني أنها منتوج عمل جماعي مركّب، فيتحوّل إلى موضوع محدّد ومعاش ومسيّر بطريقة معينة حسب كل سياق تاريخي واجتماعي[1]. كما يصبح في تفكير الباحث واشتغاله إطاراً معرفياً لظاهرة اجتماعية معقدة ومركّبة مفتوحة على الكثير من الأبعاد والدلالات سواء كانت ثقافية أو اجتماعية أو قانونية أوانتروبولوجية وسياسية، بل أنّ مسألة تفاعل وتعامل المجتمع مع المُصاب (المريض) تصبح خاضعة إلى منطق مختلف عن ما هو ممارسة ذات محتوى وأهداف طبية تحدّدها وتوجّهها منطلقات صحية علاجية موضوعية، فقد نجدها على سبيل المثال فيما هو علاقة تفاعلية اجتماعية تضامنية أو نزاعيه بين الطبيب والمُصاب (المريض) وبين هذا الأخير وعائلته، وفي علاقة المجتمع بالمُصاب (المريض). هذه العلاقة تغذيها وتحرّكها دوافع ثقافية وأخرى اجتماعية كما يمكن أن يكون لها حضوراً فيما هو مواقف تؤسس لها وتبنيها توجهات وقناعات يتم الاعتقاد فيها. لهذا تصبح إلزامية الدراسة العلمية وتعدّد مقارباتها فرصة مواتية تفتح المجال واسعاً لتناول الظاهرة من زوايا متعددة وعبر تخصصات مختلفة ووفق إشكاليات كثيرة بحيث يجد الباحث في علم الاجتماع موقع وإمكانية له فيها.

هذه الوضعية هي التي دفعت بنا أن نسحب موضوع الطفل التوحّدي من سياقه الطبي الإكلينيكي حتى نضعه ضمن سياق اجتماعي ثقافي، أو ضمن ما أسماه غوفمان بنظام العلاقة التفاعلية المتبادلة[2]، حتى نتمكّن ونساهم من جانبنا في دراسة أحد زواياه وفق مقاربة معرفية وبأدوات منهجية سوسيولوجية.

اهتمامنا البحثي ينطلق من معاينة للميدان، حيث أنّ مجموع التمثلات والتصورات التي يشكّلها أفراد المجتمع بخصوص موضوع الطفل التوحّدي، تذهب وتؤكد في دلالاتها ومعانيها إلى وصفه وتصنيفه على أنّه شخص غير عادي يختلف عن باقي الأطفال الآخرين، إنه يفتقد إلى مجموعة من العناصر والخصائص التي يمتلكها الإنسان العادي بسبب طبيعة الأعراض التي يعاني منها وخصوصية الاضطرابات التي يظهرها ونمطية بعض السلوكيات التي يقوم بها. ما يدفع بهم إلى اعتماد وإنتاج أنماط محددة من المواقف والممارسات وردود الأفعال والعلاقات اتجاه هذا الطفل كلها تنتمي إلى دائرة ما أسميناه بموقف الاعتراف بهذا الأخير في شخصه أولاً وفي هويته ومكانته واستعداداته ثانياً. هذه الإنتاجات كلها قائمة في جوهرها وفي تجلياتها على أشكال متعددة من التهميش والإقصاء والاستبعاد...

إذن؛ نحن أمام إنتاجات سوسيواجتماعية فردية وجماعية تشكّل وتعكس هيمنة لفعل التقسيم والانقسام الطبقي وللتمييز والتمايز الاجتماعي داخل المجتمع، وتعبّر من حيث أهدافها وانعكاساتها عن شكل من التهديد للمُصاب باضطراب التوحّد وأسرته في هويتهم ومكانتهم الاجتماعية. هذه المخرجات يقابلها من جانب الأسرة إنتاجات محددة من أشكال الممارسات وردود الفعل دفاعاً عن وجودهم وإثباتا لانتمائهم وبحثاً عن الاعتراف بهم وتحقيقاً لاندماجهم.

كلّ هذا دفع بنا إلى طرح التساؤل التالي:

ما هي المجالات أو الفضاءات المكانية الاجتماعية التي تتم داخلها أشكال ممارسات فعل النضال التي تعتمدها أسر الطفل التوحّدي من أجل البحث وانتزاع قيمة الاعتراف الاجتماعي التي سلبت منهم؟

2. الإطار المنهجي للدراسة

إننا نتبع في دراستنا هذه المنهجية ذاتها التي اعتمدها مونتسكيو عندما أقرّ أنه لا ينبغي الانطلاق من الماهيات بل من الوقائع، لأنّ عملية البحث في الماهية مهما كانت تقودنا مباشرة إلى إنتاج نموذج مثالي[3]. في السياق نفسه يشير التعريف الذي قدمته منظمة الصحة العالمية بخصوص اضطراب التوحّد على أنه اضطراب نمائي يتعرّض من خلاله المُصاب إلى مجموعة من الاعتلالات التي تتحدّد وتتصف بضعف السلوك الاجتماعي التواصلي، ما ينتج عنه نمط لا نموذجي من الأنشطة والسلوكيات. من هنا يمكننا القول أن الطفل التوحّدي موجود في وضعية متميزة تتصف بالعجز وعدم القدرة على القيام بالوظائف والأدوار الأساسية بطريقة طبيعية وسلسة. وإنّما تتخللها صعوبات تمنعه من تلبية حاجياته ومتطلباته اليومية بصورة عادية وبكيفية مستقلة. الأمر الذي يجعله معرّضاً للتهديد مادياً أو معنوياً في وجوده الاجتماعي والبيولوجي وفي مستقبله في علاقته بنفسه وفي علاقته بالمحيط الذي ينتمي إليه.

أمام هذه الوضعية الصعبة والمعقدة في نتائجها على مستوى ما تعكسه من خصوصية في الأعراض والاضطرابات، والتي قد تدخل الأسرة في أزمة من العلاقات التفاعلية والروابط الاجتماعية، وقد تدفع بها إلى الاستعداد والتأهّب اليومي لمواجهة العديد من التحديات واعتماد الكثير من الأدوات والرهانات في مواجهة تلك التهديدات. لهذا عندما نعود إلى الواقع ونربط تفكيرنا بالسياق المكاني الاجتماعي الذي يتواجد داخله المُصاب بالتوحّد المتعلق تحديداً بالفضاء الاجتماعي الأسري كنسق وظيفي وعلائقي، سوف نجد أنفسنا أمام ظاهرة

بخصائص وخصوصيات اجتماعية وثقافية بامتياز تتحوّل إلى حقل معرفي وفكري استثنائي وخصب جاهز للبحث فيه، والخوض في فهم أو تفسير العديد من الإشكاليات التي يطرحها خاصة عندما نتوجه بموضوع الطفل التوحّدي نحو قراءة وتشخيص من منظور سوسيولوجي، ليس للاضطراب أو المُصاب في حدّ ذاته، وإنما لزاوية أشكال وأنماط العلاقة الاجتماعية التفاعلية التي أفرزتها وفرضتها وضعية لم يتمّ التعوّد عليها من قبل. بل لأنها تشكّل من حيث تمظهراتها وفي مستوى تمثلات المجتمع صورة غير عادية تعطي تشويهاً وتصنيفاً غير عادل للمُصاب.

تركيزنا البحثي من خلال هذا الموضوع سوف يكون حول نمط هذه العلاقات التفاعلية وما تنتجه من مخرجات اجتماعية. هذه العلاقات تتمّ وتحدث جلّها حول موضوع المُصاب والتي تساهم في إنتاجها وفرضها نمطية معطيات وخصائص تلك الوضعية والتي يشترك فيها من وجهة نظرنا ثلاثة أطراف اجتماعية ممثلة في الطفل التوحّدي، الأسرة والمجتمع.
منهجياً وحتى نظرياً وتقيداً بزاوية موضوع دراستنا يمكن القول أنّ ظاهرة المرض (الاضطراب) والمريض (المُصاب) في طرحها العام بكل ما تحمله من أبعاد ومؤشرات عندما نربطها بسياقها الاجتماعي الأسري الذي تتواجد فيه وتتفاعل مع عناصره البنائية والقيمية والذي تتحكم فيه كتلة الشروط الثقافية والاجتماعية، سوف نجد أنّها تفرز شكلين أساسين من العلاقة التفاعلية الاجتماعية في مستواها الماكروسوسيولوجي.

1.2 الشكل الأول:

هذا الشكل من العلاقة التفاعلية لا تتحقق صور تمظهراتها الفعلية والعملية ويكشف عنها سياق الميدان الذي وجدت داخله فحسب، بل يمكن ملاحظتها في الواقع المُعاش اليومي المتكرر للأسرة. حتى أنّ الإنتاجات الاجتماعية لهذا النمط من العلاقة وانعكاساتها

وتأثيراتها يمكن إدراكها ومعاينتها واقعياً. إنّه يتحدد في مستوى ما هو علاقة للكفالة والعناية الأسرية التي تقع بين الوالدين والأم تحديداً والطفل التوحّدي، هنا يصبح تهديد المرض والخوف وما يمكن أن يسببه من اضطرابات في الممارسات والسلوكيات العنيفة والمقلقة والانعزال عن الآخرين والانفصال عن الواقع المادي، دافعاً لدخول الأسرة في علاقة وظيفية للوصاية المطلقة والشاملة على الطفل التوحّدي، التي تظهر تجلياتها في ضرورة العناية والتكفل المستمر بتلبية الحاجيات البيولوجية والنفسية له، فيتحوّل ذلك كله إلى شكل من الاهتمام الأكبر والانشغال الرئيسي، هذا ما أكدت عليه العديد من نتائج الدارسات والأبحاث في مختلف التخصصات التي بينت شدة المعاناة ودرجة المشقة والصعوبات التي يواجهها الوالدين خاصة الأم في القيام بهذه المهمة.

2.2 الشكل الثاني:

لقد كشفت لنا المعاينة الأولية لواقع بعض الأسر التي لديها طفل مصاب بالتوحّد والتي تم الاحتكاك والتفاعل مع بعض أفردها أن هناك مستوى آخر من العلاقة التفاعلية سوف يتشكّل ويكون مجالاً ثانياً لممارسة فعل النضال والمقاومة من أجل القبول بالمُصاب كشخص عادي، فتسعى من خلاله أسرة الطفل التوحّدي إلى القيام بمهمة الحماية والدفاع عن أحقية الطفل بالتواجد داخل المجتمع وأحقيته في الحصول على الهوية والمكانة المطلوبة. هذا التوجّه تفرزه وتفرضه وضعية المُصاب التي تتحول إلى دافع يربط هذه المرة بين الأسرة والمجتمع في تفاعلها، فتصبح هذه الوضعية تشكل هي الأخرى تحدي كبير في حياة الوالدين تحديداً وأحد أبرز انشغالاتهم واهتماماتهم الأساسية، بعدما يصبح المجتمع ومؤسساته مصدر يمارس عليهم تهديداً، مما يتطلب الاستعداد لرهان المواجهة والتصدّي لهذه الخطورة التي تهدّد المُصاب بالتوحّد وأسرته بالإقصاء والتهميش من دائرة المجتمع،

خاصة عندما ندرك أن هذا النمط من العلاقة مبني ويحرّكه منطق التصادم والصراع وتؤثر فيه مواقف ووجهات النظر المختلفة والمتناقضة.

ما يميّز هذا المستوى في نظرنا أنّه خفيّ ورمزي في تمظهراته وانعكاساته، لأنّه تحرّكه وتفعله من جانب الأسرة أهداف تبحث عن الاعتراف كقيمة اجتماعية لها دلالة ثقافية. بل إنّ الاعتراف نفسه في دلالته ومعانيه يأخذ منحى أخلاقياً ثقافياً وليس نفعياً مصلحياً، لكن رغم ذلك يبقى الاعتراف في بعده الممارساتي قائم على ثنائية المطلب والاستجابة. بل إن الباحث هربرت ميد ربط سيرورة اشتغاله بما أسماه بمنطق النزاع أو الصراع[4]. أما من جانب المجتمع فأنها تعكس ممارسات باثولوجية لها تأثيرات على رمزية الهوية والمكانة الاجتماعية لها علاقة بإنتاجات التمثلات والصور الذهنية التي يشكلها الأفراد بخصوص موضوع الطفل التوحّدي التي تشمل مستوى العلاقة بين الأسرة والمجتمع.

يكشف لنا الواقع أن مسألة التوحّد تجاوزت السياق الطبي العلاجي باعتبارها مجرّد ظاهرة مرضية لها علاقة مباشرة بما هو عناصر ومعطيات لأعراض إكلينيكية تحتاج إلى بروتوكول علاجي، بل هناك سياق اجتماعي يتفاعل داخله الطفل التوحّدي وأسرته، ويتأثرون بإنتاجاته بسبب علاقات الاحتكاك والتفاعل التي تحدث بين المجتمع والمُصاب وأسرته، وما ينجرّ عنها من نحت للعديد من الممارسات والمواقف وصور التمثلات الذهنية. الأمر الذي يفتح المجال لعمليات البحث والدراسة السوسيولوجية قصد التعرّف على أنماط تلك العلاقات التفاعلية المتبادلة والكشف عن طبيعة ومحتوى مخرجاتها وأسلوب ودرجة تأثيرها وفهم وتفسير دلالاتها ومعانيها.

تفكيرنا وانشغالنا البحثي يتوجه نحو هدا الإطار لشبكة العلاقات التفاعلية ويتحدّد داخل هذا السياق الاجتماعي الاشتغالي باعتباره حقلاً عملياً وواقعياً لإنتاج وإعادة إنتاج مختلف

التناقضات والاختلافات، بل إنه الفضاء الذي تتجسد فيه أشكال ممارسات سلطة الإكراهات سواء كانت مادية أو رمزية، فردية أو جماعية.

3. الهدف من الدراسة:

تكشف بعض الإحصائيات العامة للمنظمة العالمية للصحة عن الارتفاع الكبير والخطير في عدد المصابين باضطراب التوحد فهناك طفل واحد من بين 160 يعاني من هذا الاضطراب، ووصل العدد العام من الأشخاص المصابين بالتوحّد في العالم إلى حوالي 70 مليون حالة، أما في الجزائر فالوضعية تثير قلقاً كبيراً نظراً لطبيعة الأعراض العقلية والنفسية والسلوكية التي يحدثها هذا النوع من الاضطرابات، والتي تتطلب من أجل التكفل بها حتى لا نقول علاجها أساليب خاصة وكفاءات متخصصة. في المقابل نشهد محدودية في الإمكانيات المادية والبشرية القادرة على المتابعة الطبية والنفسية لهذا الصنف من المُصابين بهذا الاضطراب. لقد تم تسجيل أكثر من 80000 مُصاباً من بينهم 4000 طفل تم التكفل بهم من طرف المراكز المتخصصة، كما نجد من بين 150 مولود جديد يوجد طفل توحّدي. ورغم كل ذلك، تبقى هذه الأرقام الرسمية لا تعكس حقيقة الواقع خاصة عندما ندرك طبيعة الصورة النمطية السلبية التي يشكّلها المجتمع الجزائري في مستوى تمثلاته الثقافية بخصوص اضطراب التوحّد التي تجعل بعض أسر المُصابين بهذا الاضطراب تخفي هذه الحقيقة وتمتنع عن الكشف والتصريح بها لدى الهيئات المعنية.

عنصر القلق يتأكد ويزداد حدّة عندما نتيقّن أنّ الخطر الأصعب والأكبر الذي يهدد الطفل التوحّدي وأسرته لا يتعلّق باضطراب التوحّد وتداعياته الصحية والمادية فقط، لأنّه في نهاية المطاف يضل هذا الأمر طبيعي ويمكن تقبله ما دام أنه مرتبط بالحقيقة غير الكاملة وغير المثالية لجميع المخلوقات، وإنما هو مرتبط بذلك التهديد القادم من المجتمع وما

يمارسه من أشكال للعديد من الإكراهات المادية والمعنوية بسبب طبيعة علاقته بالمُصاب وكيفيات تفاعله معه وماهية إنتاجاته الذهنية حوله. هنا حجم ودرجة التحديات سوف تزداد خطورة وحجماً وترتفع معها شدة الحذر والتخوّف خاصة لما يصبح التهديد يمسّ بدرجة مباشرة الأفراد في عمق رمزية ذاتهم البشرية وفي قوة وقيمة وجودهم الاجتماعي، فيحاول أن ينزع عنهم صفة الفاعل الاجتماعي بكل ما يحمله ذلك من إمكانية للعيش المشترك ومن القدرة للارتباط بالآخر والاستمرارية في التفاعل معه تحقيقاً وتلبية لمختلف الحقوق.

هدفنا الأساسي من هذه الدراسة هو أن نكشف عن المجالات المكانية والفضاءات التفاعلية التي يتشكّل عبرها هذا التهديد، وأن نوضّح طبيعة وأشكال الخطورة التي يحدثها حتى يتحوّل تركيز الاهتمام والانشغال نحو هذا التهديد وهذه الخطورة ذات الطابع الاجتماعي، وأن نجعل منها مسألة ينبغي على المجتمع ومؤسساته أن يوجهوا نحوها مجهوداتهم وإمكانياتهم حتى نرفع الغبن والمعاناة عن هذه الفئة الاجتماعية ونعطي لها فرصة الانتماء الفعلي والفعال إلى المجتمع والاندماج ضمن شبكة تفاعل علاقاته الاجتماعية.

إننا نعتقد أنّ الرهان الأكبر الملقى على عاتق ومسؤولية المجتمع بكل مؤسساته هو في الحدّ من القطيعة والانقطاع في سيرورة شبكة تفاعل العلاقات المتبادلة، وفي الحفاظ على تعزيز وتقوية الروابط الاجتماعية ما بين أفراد المجتمع والطفل التوحّدي وأسرته من جهة، والحدّ من حالة الانعزال والانطواء التي يعيشها ويعاني منها المُصاب من جهة ثانية. التحدي نراه في تبني مشروع غرس ونشر ثقافة الاعتراف والقبول بالآخر مهما كانت الاختلافات والتناقضات التي يطرحها الواقع بمختلف مستوياته وأبعاده، وأن نؤسّس لمنظومة معيارية أكثر موضوعية وعملية، حتى نقلص من حجم الفراغات المكانية داخل الحقل الاشتغالي التفاعلي للمجتمع التي نعتبرها مصدر للخلافات والصراعات. في هذا الصدد يقول

سيرج بوقام: الإنسان يرتبط بالآخرين وبالمجتمع ليس فقط لتحقيق الحماية من أخطار الحياة ولكن أيضا لتلبية حاجة أساسية متعلقة بالاعتراف منبع هويته ووجوده كإنسان[5] .

4. الأسرة ونضال البحث عن الاعتراف:

إنّ الدخول في علاقة في حقيقة الأمر هو أن تكون في تصادم مستمر بخصوص ما هو مختلف عنا بيولوجياً ونفسياً واجتماعياً وثقافياً، لهذا عندما نزلنا إلى الميدان كشف لنا الواقع عن قوّة التحدّي الذي تواجهه أسرة الطفل التوحّدي من طرف المجتمع وصعوبة تجاوزه حسب ما صرّح به أغلبية المبحوثين. هذه التصريحات جعلتنا نصف رهان مقاومة ذلك التحدي ونصنّف النشاط والمجهود الذي تقوم به الأسرة من أجل ذلك بفعل النضال من أجل المطالبة، أو لنقُل بصورة أكثر دقة انتزاع حق الاعتراف والقبول الاجتماعي ليس فقط على مستوى علاقة الصراع مع الآخر الاجتماعي وما ينتجه من ممارسات وصور ذهنية، ولكن أيضا في علاقة التصادم مع منظومة محددة من المعايير والقواعد الثقافية التي تؤدي وظيفة إنتاج وإعادة إنتاج شروط الهيمنة الرمزية المستمرة في مختلف أشكالها وعبر العديد من مستويات العلاقات التفاعلية.

لقد بيّنت لنا نتائج البحث الميداني أن المجالات المكانية الاجتماعية وحقول علاقات التفاعل التي يتمّ على مستواها ويوجّه نحوها ممارسة فعل النضال ليست واحدة، لأنّ مصادر التهديد والخطر متعددة ومتنوعة ولهذا حاولنا أن نختصرها في مجالين أساسين.

1.4 مجال الفضاء العلائقي العائلي:

في نظر الأبوين بداية التحدي الذي يواجهونه يأتي من داخل هذا الفضاء الاجتماعي العائلي لأنه يشكّل المصدر الأول للخطورة التي تهدد الطفل التوحّدي وحتى أسرته في

توازنها واستقرارها وفي قوة رابطتها الاجتماعية. ولهذا فإنّ نضال انتزاع الاعتراف بالهوية الاجتماعية للطفل أمر أساسي باعتبار أنه يكشف عن من أكون وكيف أكون في نظر الآخر؟ إنه مبدئي التحديد والتعريف بمن أكون والذي يتحصل عليه من الآخر ورهان غاية القبول. أن يكون لهذا الطفل تواجد ومكانة داخل هذا الفضاء، حتى يمارس حقوقه الطبيعية ينبغي أن تكون البداية من هنا وفي مستوى علاقة التفاعل في نمطها الصراعي بين الوالدين وأفراد ذلك الفضاء. طبعاً يتشكّل الفضاء العائلي في بنيته التركيبية من الإخوة وباقي الأفراد الذين تحكمهم رابط الاشتراك في نفس صلة القرابة قريبة كانت أو بعيدة، إذن يمكننا القول أنّ مصدر صور معاناة الأبوين من الانعكاسات الباثولوجية التي تحدثها حالة اللااعتراف الاجتماعي بابنهما المُصاب بالتوحّد مصدرها الأول هو أفراد العائلة.

مسألة اللااعتراف الاجتماعي بالطفل التوحّدي تعّبر عنها وتفرضها بعض مواقف وممارسات أفراد العائلة، التي توصف بالحيرة والدهشة والغرابة التي يعلنون عنها بكيفية مباشرة أو غير مباشرة ويصرحون بها علنية أو خفية عندما يكتشفون أو يلاحظون أن هذا الطفل تصدر عنه اضطرابات سلوكية وممارسات غير عادية مثل الصراخ المتكرر. هنا تبدأ عملية الحكم والإشارة إليه بنوع من التمييز السلبي ونقص في الاحترام والتقدير لشخصه وحتى لحضوره ويصنف ضمن دائرة الأطفال غير العادين، ليتم بعد ذلك اتخاذ ردود فعل إزاءه قائمة على استبعاده وإقصائه من دائرة شبكة تفاعل العلاقات المتبادلة. كل هذا يخفي شعور بالخجل منه إن لم نقل بالاستياء وبموقف التحفظ إن لم نقل بالرفض لأن يكون هذا الطفل طرفاً ينتمي إلى الفضاء العائلي المشترك، أو أن تمنح له الهوية الاجتماعية العائلية. إنها الحالة التي يفقد فيها الطفل قيمة التقدير والاعتبار.

في السياق نفسه لكن من زاوية أخرى، اكتشاف الأقارب أن هناك طفل مُصاب باضطراب التوحّد داخل العائلة يعتبر دافعاً قوياً قد يفتح المجال واسعاً لتشكّل بعض الأحكام القيمية اللاأخلاقية اتجاه الوالدين تصبّ فيما هو عتاب وحتى عقاب لهما من السماء عندما يتم وصفهم بأنهم ارتكبوا ذنبا أو خطأ من قبل، فكان جزائهم على هذا النحو –بلية صابتهم– هذه الوضعية بكل ما تحمله من إكراهات سواء كانت لفظية أو رمزية أو حتى سلوكية وبكل ما تنتجه من انعكاسات باثولوجية، ضمن نظام تفاعل العلاقات الاجتماعية العائلية هي التي تترك لدى الأبوين، تخوفاً من احتمال حرمان ابنهم أو ابنتهم من بعض الحقوق الأساسية، ومن تهديدها وتأثيرها على استقرار وتوازن وتماسك البنية الأسرية. بل إن هذه الوضعية بكل ما تخفيه أو تعبر عنه من خلافات ونزاعات بين الوالدين وباقي أفراد العائلة حول موضوع الابن التوحّدي سواء كان ذلك قبولاً أو رفضًا شفقة أو تقديراً تضامناً أو قطيعة، هي في حقيقة الأمر مثل ما يرى اكسل هونت أشكالاً من النضال من أجل الاعتراف[7]، إنّه صراع البحث عن مكان داخل العائلة يستطيع الطفل التوحّدي من خلاله الحصول على فضاء انتمائي يوفر له مكانة اجتماعية ويمنحه هوية عائلية.

2.4 مجال الفضاء العلائقي المجتمعي:

معلوم أن المجتمع ليس كبنية اجتماعية لتركيبة من الأفراد فقط، وإنما كنمط وكطريقة في الاشتغال يضع ويؤسس لنفسه ولوجوده ولاستمراريته منظومة ومجموعة من الأطر والقواعد، التي يهدف من خلالها إلى توزيع وترتيب الأفراد إلى أصناف أو فئات اجتماعية ووضعهم ضمن مجموعات اجتماعية مغلقة، وفق شروط وخصائص محددة مسبقاً. بل إنّ هذه الأطر تلعب دوراً في ترتيب هؤلاء وفق سلّم من التدرج الاجتماعي يمنح ويضع كل شخص ضمن مكانة اجتماعية معلومة، تؤسس له بدورها قيمة ورمزية اجتماعية محددة. انطلاقاً من هذه القاعدة المرجعية الواقعية التي كشف عنها التفكير السوسيولوجي عبر

العديد من مقارباته النظرية سوف يتحدّد وتتشكل عناصر ومعطيات سيرورة اشتغال المجال الثاني من العلاقة بين أسرة الطفل التوحّدي والمجتمع.

لقد بيّنت لنا نتائج الدراسة الميدانية التي قمنا بها بعد قراءتها سوسيولوجياً، أنّ هناك مجال مكاني آخر وفضاء اشتغالي ثاني، غير ذلك المتعلق بالعائلة ومكوّناتها الذي يضلّ في نظر المبحوثين يمثّل مصدر للعديد من التحديات التي ينبغي على أسر الأطفال المتوحّدين، الأبوين تحديداً مواجهتها بل الاستعداد والتحضير في مقابل ذلك لوضع واعتماد رهانات من أجل تجاوزها، أو الحدّ من تهديداتها والتقليل من درجة خطورة انعكاساتها وانتشارها.

لهذا سوف تسعى وتعمل هذه الأسر بجدّ وباستمرارية على أن توجّه مقاومتها لهذا التهديد ونضالها الهادف إلى انتزاع حق الاعتراف والقبول بطفلهما داخل دائرة المجتمع كيف ما كان، نحو هذا المجال المكاني من العلاقة التفاعلية الذي يعتقد أنه يمثل فيه أفراد المجتمع ومؤسساته بما في ذلك منظومته القانونية المعيارية العدّو المادي والرمزي الأكثر خطورة والأصعب مواجهة ومقاومة له، مقارنة بالفضاء العلائقي العائلي لأنه هذه المرة سوف يأخذ في تجسيده الميداني أشكالاً متعددة ومختلفة من الإكراهات، سواء كانت فردية أو جماعية مادية أو معنوية، بل إنّ معظم انعكاسات وتأثيرات ذلك التهديد وتلك الخطورة على الطفل وأسرته سوف تكون بدرجة قوية ومتكررة ووفق تجليات وتمظهرات واقعية عملية مختلفة ومتعددة.

هدفنا ضمن هذه النقطة هو محاولة تفكيك وتوضيح التجليات الفعلية لتلك الأشكال الاجتماعية من إكراهات الخطورة والتهديد التي تمارس على الطفل التوحّدي وأسرته. وأنماط وأساليب فعل النضال التي اعتمدتها ومارستها أسرة الطفل كردّة فعل للمقاومة وطلباً

للاعتراف الاجتماعي. يقول اكسل هونت إن الإنسان ليس إنسانا إلا في الحالة التي يفرض فيها نفسه على إنسان آخر من أجل الحصول على الاعتراف. إن مرجع أفعاله وقيمته ترتبط بهذا الآخر وبالاعتراف الذي يمنح له[8].

لقد تأكد لنا أن عناصرها التركيبية متعددة ومختلفة ولهذا حاولنا أن نجمعها في قالب معرفي مفاهيمي واحد نأمل أن يعبّر عن المعنى الإجمالي والمشترك لتلك العناصر، ألا وهو تحدي تهديد الوصم الاجتماعي.

اعتماداً على أقوال المبحوثين شكّلت مسألة تعرّض الطفل التوحّدي لحكم الوصف بالوصم من طرف المجتمع والذي يجلب له ولأسرته العار المشين أحد أخطر التهديدات التي يوجهها أو يصطدم بها الأبوين باستمرار وتضلّ تلاحقهم في العديد من الأماكن والمواقع الاجتماعية حتى أنها تضعهم في حالة من الإحراج ومن الشعور بالقلق والخجل أمام الآخرين، نظراً لما يحمله هذا الوصف أو التسمية من رمزية سلبية ضمن منظومة الثقافة العامة للمجتمع، وما تعكسه من علاقة ووضعية للمضايقة الاجتماعية خاصة عند ما يمس هذا الأمر الجوانب الإنسانية والأخلاقية للفرد.

هذا ما دفع غوفمان إلى الاعتقاد أن أيّ شخص لديه وصم لا تتحقق فيه إلى حدّ ما الصفة الإنسانية، وانطلاقاً من هذه المسلمّة تمارس عليه كلّ أشكال التمييز التي من خلالها تقل فرصه[9]. لمّا تلصق بالشخص المُصاب بالتوحّد تسميات مثل: المهبول، العقون، البهلول...إلخ، أو باللغة الفصحى المتخلّف أو المتأخر عقلياً وتوسعها على باقي أفراد أسرته مثل: أخ العقون، أخ البهلول ....إلخ، فأنت هنا تضع المعني وأسرته في موقف صعب يجعله هدفاً لصفات بغيضة قد تثير حوله الكثير من الشائعات، التي تكون سبب في تشويه سمعته والمساس بهويته. هذا الأمر بدوره سوف يكون ممهداً ومشجعاً لتشكّل علاقة مبنية على الإذلال والاحتقار للطفل المُصاب بالتوحّد، بحيث تجعل هذا الأخير يتأثّر في قيمته

الاجتماعية وبالتالي يتشكّل لديه ولأسرته شعوراً بعدم القدرة على الدخول في علاقة تفاعلية عادية مع الآخرين. من منطلق حرمانه من امتلاك المكانة نفسها والقيمة الاجتماعية التي يتمتع بها الآخرين.

إننا أمام وضعية اجتماعية جدّ خطيرة، أو لنقل باثولوجية تصبح فيها ميكانيزمات الاندماج الاجتماعي ضعيفة بعد ما يسيطر عليها منطق الانقسام والتقسيم ويحدّد فيها تراتبية الأفراد بأسلوب من التعسف والظلم، بعيداً عن قيم المساواة ومعايير العدالة الاجتماعية، باعتبار أن المسألة كلّها تقوم في سيرورتها على أحكام قيمية ووفق شروط ذاتية لا علاقة للمُصاب باضطراب التوحّد بها، بل يتحول فيها إلى الضحية. ربما قد تكون أحد صوره الاجتماعية التي استخلصناها من البحث الميداني هي تلك المتعلقة بالشخص القاصر الذي لا يعترف له بالتحكم في نفسه وبالتالي ليس لديه أيّ هوية خاصة[10]. إنّ الاحتقار يعبّر عن تصرّف غير عادل، فهو قبل أن يمسّ الأفراد في هويتهم وفي حرية أفعالهم أو أن يلحق بهم ضرراً مادياً، فإنه يصيبهم بالأذى في رابطتهم الاجتماعية بالآخرين وفي الفكرة الإيجابية التي يحملونها بخصوصهم.

فخطورة الوصم في اعتقادنا ليست عندما نلقي على الآخر هذه الصفة، وإنما ما يترتب عنها من انتاجات اجتماعية لأشكال متعددة من الإقصاء والتهميش والتغييب من دائرة العلاقات التفاعلية المتبادلة، ومن أنماط التغييب والإلغاء لهويته الاجتماعية، فيبعده كل ذلك عن فرصة وإمكانية وحرية التعبير عن نفسه وعن استعداداته. فدرجة الإهانة والإذلال والدونية التي يتعرّض لها الطفل التوحّدي من طرف المجتمع، تدخله ضمن سياق اجتماعي أكثر خطورة عندما يفقد حق الظهور والتواجد داخل الفضاء العام، ليس بالمعنى المادي

الشكلي، وإنما من حيث دلالته الاجتماعية الرمزية المتعلقة باللاتقدير واللاتثمين للشخص، لأنه غير ملاحظ اجتماعيا. إنها الحالة التي سيصبح فيها عديم الاهتمام ومحدود العناية.

نضال أسرة الطفل التوحّدي يتعلّق أيضا بالمطالبة بضرورة حضوره داخل الفضاء العمومي كفاعل اجتماعي قبل أن يكون شخصاً مُصاباً باضطراب التوحّد، لأنّ في ذلك تأكيد على التواجد داخل فضاء الفعل والعلاقات التفاعلية المتبادلة التي هي شرط أساسي حسب ما ذهبت إليه حنا أروندت حتى يتم رؤيتهم وملاحظتهم من طرف الآخرين[11]. أي يتم قبولهم كذوات فاعلة لديهم هوية اجتماعية. إنه الاعتراف بأهميتهم وبقيمة وجودهم الإنساني قبل كل شيء. هذه الوضعية وما تحمله من إكراهات اجتماعية ومن تهديد للهوية هي التي تدفع بأسرة الطفل التوحّدي إلى الدخول في علاقة صراع وتصادم مع المجتمع ومؤسساته من أجل الانتزاع منهم حق الاعتراف بهوية طفلهم المُصاب وبأحقيته في الاندماج ضمن سلسلة الروابط الاجتماعية العامة وفي التواجد داخل نظام العلاقات التفاعلية المتبادلة وفي ممارسة حقوقه الأساسية.

5. خاتمة:

لقد مكنتنا هذه الدراسة الميدانية من الوصول إلى استنتاج عام مفاده أنّ موضوع التوحّد بجميع أبعاده الفكرية ومنطلقاته المنهجية، يضلّ في علاقته بالواقع وشروطه يمثل ذلك المجال الواسع وذلك الإطار المفتوح أمام الباحث المتخصص، لإمكانية تناوله بالتحليل والفهم في العديد من زواياه ولطرح الكثير من الاستفهامات النظرية والإجرائية. لهذا لا ينبغي في نظرنا أن نبقي هذا الموضوع مثل ما هو معتاد عليه ضمن دائرة التناول والطرح الطبي أو العلاج السيكولوجي الصرف. إذ تصبح المقاربة التفكيكية التحليلية في نموذجها السوسيولوجي إضافة ذات أهمية بالغة.

فدراستنا هذه المتواضعة حول موضوع التوحّد على مستوى نظام تفاعل العلاقات والتي حصرانا وحددنا فيها مجال وتوجه اهتمامنا العلمي وانشغالنا البحثي حول إشكالية رهان فعل النضال من أجل البحث والمطالبة بحق الاعتراف. كمبدأ وكمعيار إنساني بعد ما اخترته واعتمدته أسرة الطفل التوحّدي في علاقتها بحجم وطبيعة التحديات والتهديدات التي يمارسها المجتمع عليهم، تضلّ محدودة ونسبية في بعدها المنهجي التحليلي مقارنة بالطبيعة المعقدة والخصوصية المركبة التي يتصف بها اضطراب التوحّد بشكل عام في سياقه الماكروسوسيولوجي.

إننا نعتقد أنّ النتائج والاستنتاجات التي تحصلنا عليها والتي نعتقد أنها قريبة إلى حدّ ما مما هو علمي وموضوعي، هي نفسها تضلّ أولية وتبقى تحتاج إلى دقة أكثر وتوضيح أكبر وأشمل وتحليل أعمق وقراءة أوسع لمعطياتها وعناصرها المعرفية وحتى المنهجية، خاصة ما تعلق منها بالجانب الميداني الذي تنتج وتتفاعل داخله جوانب وأبعاد هذا الموضوع، طبعاً وفق سياق اجتماعي وثقافي متعدد ومتجدد باستمرار. ويبقى أنّ موضوع الطفل التوحّدي من مستوى تناوله السوسيولوجي يعكس من حيث تجلياته وتمظهراته الواقعية، عن نوع من هيمنة علاقة قوة للاختلاف والصراع بين أسرة الطفل المُصاب وسلطة قواعد ومنطلقات اشتغال المجتمع. الأمر الذي أنتج من الناحية العملية وضعية من الثنائية بين ما هو إكراهات تمارس تهديداً وتحدث خطر على الهوية الاجتماعية للطفل التوحّدي، وعلى استقرار وتوازن شبكة تفاعل العلاقات المتبادلة الأسرية وعلى رابطة العيش المشترك داخل المجتمع. وما هو فعل للنضال والمقاومة تجاوزاً لمختلف تلك الإكراهات وتحدياتها وطلباً للاعتراف بالأحقية في جميع الحقوق المشتركة.علماً أنّ الفضاءات المكانية والوجودية لتلك الثنائية ولتلك

الأنماط من العلاقات التفاعلية الاجتماعية، تضلّ متعددة ومختلفة يكفي أننا اختزلناها في مجالين اثنين فقط الأول مرتبط بالعائلة والثاني يتعلق بالمجتمع.

6. قائمة المراجع:

1-Garneau Stéphanie et Namian Dahlia,Ervin Goffman et le travail social, Les Presses de l'Université d'Ottawa, Canada,2017,p94.

2- Francou Lionel, Daniel CEFAÏ et Laurent PERREAU (dir.*)*, Erving Goffman et l'ordre de l'interaction,Revue européenne des sciences sociales, (Paris/ CURAPP-ESS/CEMS-IMM), n°464, 2012, p136.

3– ألتوسير لوي، مونتسكيو السياسة والتاريخ، ترجمة نادر ذكرى، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،2006، ص14.

4– بقورة الزاوي،الاعتراف من أجل مفهوم جديد للعدل، دار الطليعة، بيروت، 2012، ص172.

5- paugam Serge, le lien social, Ed Que sais je ,PUF,Paris,2005,p07.

6- Ficher Gustave Nicolas, les concepts fondamentaux de la psychologie sociale, Ed Dunda paris, 2010, p16.

7– بقورة الزاوي،الاعتراف من أجل مفهوم جديد للعدل، دار الطليعة، بيروت، 2012، ص159

8– بومنير كمال، الحق في الاعتراف مدخل إلى قراءة فلسفة اكسل هونت، دار الخلدونية، الجزائر، 2018، ص86

9- Goffman Ervin,Stigmate -les usages sociaux des handicaps-,Editions de Minuit,Paris,1975 ,p15.

10- Courtel Yannick **,** La lutte pour la reconnaissance dans la philosophie sociale d'Axel Honneth, revue des sciences religieuses,n°82/1,2008,p11.

11-Les luttes pour la visibilité-Esquisse d'une problématique-,cairn.info/revue-reseaux1-2005-1-p22.